تساؤلات جغرافية

أ.د. مضر خليل عمر

تردني بين حين وآخر تساؤلات من طلبة الجغرافيا ، وللتوضيح فان كلمة طالب لا ترتبط بالمسجلين في المدارس والجامعات بل تعني كل طالب للعلم سواء اكان حاصل على شهادة جامعية ام لا . وان الشهادة الجامعية هي ايذان بانتهاء مرحلة و بداية مرحلة اخرى ، (وكما يقال ورقة تثبت انك متعلم ولا تشترط استيعابك لتخصصك وكونك اهل له) ، ولهذا فان شهادة الدكتوراه ليست نهاية المطاف الا لعشاق الالقاب للتبجح بها دون وزن علمي رصين واحترام حقيقي لها . فطلب العلم واجب وطني وديني يمتد من المهد الى اللحد ، غير مرتبط لا بالعمر ولا بالجنس ولا بنوعية المدرسة (كتاتيب ، مساجد ، صومعات ، مدارس ، جامعات ، معاهد ، مراكز تدريبية – بحثية ، الخ) .

هل الجغرافية علم توليفي ام تركيبي ؟

في البدء ، ما الفرق بين التوليف و التركيب ؟ ومتى يكون العلم تطبيقيا ؟ ولماذا الجغرافيا دون غيرها من العلوم ترد شكوكا في طبيعتها ؟ وفي منهجيتها ؟ لا اريد ان اناقش هل الجغرافيا علم ام معرفة ، فكونها علم قد اثبت وجوده وله اقسام علمية و كليات متخصصة ومدارس فكرية في اعرق جامعات العالم ، ليس هناك حاجة الى نقاش او توضيح ذلك الا لمن فقد البصيرة و لم يعرف من الجغرافيا الا ما سطر في كتب الدراسة الابتدائية للدول المتخلفة وتم تحفيضه له حينها .

يتحمل الجغرافيون انفسهم سوء الفهم هذا ، فهناك من قال بان الجغرافيا (من كل جدر كباية) وقال اخر هي ما يكتبه الجغرافيون . وما كتبه الجغرافيون منوع بتنوع التخصصات والتفرعات التي ابتعدت عن الاصل وليس تعريفا لجوهر الفكر الجغرافي وجذور معرفتها و هيكلها العظمي (المكان) (خريطة المكان) . الجغرافيا اوسع واكبر واعمق من اي تعريف ذكر عنها ، واي تعريف انما يسلط الضوء على احد جوانبها ولا يوفيها حقها .

انها دراسة المكان بابعاده (المساحية و تنظيم فضاءه و الزمن) ومكوناته الطبيعية والبشرية التي تتفاعل مع بعضها البعض لتشكل : شخصيته ، ملامحه ، خصائصه ، صفاته ، وتباينه افقيا (مكانيا) وعموديا (زمنيا) (دراسة الموضع) ، علاقته بما يجاوره (دراسة الموقع) . تتكامل الدراسة الجغرافية فقط عندما تغطي طرفي المعادلات الاتية : الطبيعي - البشري ، و الموضع - الموقع ، والمكان – الزمان . انها دراسة بيئتي المكان الطبيعية والبشرية و تفاعلهما مع بعضهما البعض و العوامل المؤثرة عليهما ليشكلا شخصية المكان و طبيعته . هنا الجغرافيا ، في هذا المعنى ، هي تركيبية ، تمزج بين طرفي المعادلة للخروج بصورة واضحة لحقيقة المكان جغرافيا في زمن محدد . فالجغرافيا بمعناها العام مزيج لا يمكن فصل طرفي معادلته عن بعضهما البعض لتداخلهما وتفاعلهما واشتراكهما في كل صغيرة وكبيرة من خصائص المكان وبنيته و بالتالي شخصيته التي يعرف بها .

وللتوضيح وبقصد التمييز بين التوليف و التركيب ، وبينهما و التطبيق في الجغرافيا اورد المثل الاتي . لنفترض الحاجة الى الكتابة عن جغرافية منطقة – مكان ما . وقد كلف عدد من الجغرافيين للكتابة عنها ، كل حسب تخصصه الدقيق ، و تمت الكتابة بصيغة فصول مستقلة عن بعضها البعض (الكتابة عن طريقة التحرير Editorial) ، ولا يربط بين الفصول الا كونها في مؤلف واحد عن جغرافية مكان محدد . ولم يتم

الربط بين مفردات الموضوعات لتفسر بعضها البعض Bridge over ، و دون تسليط الضوء على العلاقة بينها ، حينها يكون المؤلف توليفا وليس تاليفا ، وقد تعتمد طريقة القص واللصق للفقرات و العنوانات و المفردات ، ودون ان يكون هناك منظور موحد للمؤلف ، بل تجميع وتنظيم مباحث وفصول لا اكثر . تبقى اللغة هنا ركيكة ، والحجة واهية ، فما كتب مجرد معلومات منضدة تحت مسمى واحد . مثل هذه الكتابات قليلة الفائدة في الجانب التطبيقي عند التخطيط لتنمية المكان وبيئته والارتقاء به وبمجتمعه .

أما عندما تكون الدراسة المنشودة بصيغة فريق عمل موحد الرؤية ، (او بصيغة مماثلة لذلك) حينها ينظر الى و يتم تعليل مفردات المؤلف كوحدة فكرية – جغرافية متكاملة تفسر بعضها البعض ، حينها تكون المباحث – الفصول مكملة لبعضها البعض ، يصعب فهم احدها بدون استيعاب ما قبله وادراك ابعاده وصلته بما يليه من مباحث وفصول لاحقة . انه بناء فكري ، والبناء كما هو معروف لدى الجميع تركيب و ليس تجميع . في هذه الحالة قد تم التعامل مع جغرافية المكان بشكل سليم ، بما يؤدي الغرض من البحث والكتابه فيها وعنها . وعندئذ توفرت فعلا ارضية لتخطيط التنمية المكانية بيئيا واجتماعيا في وقت واحد .

يقع الكثير من طلبة الدراسات العليا في مطب عدم استيعاب العلاقة ما بين مباحث - فصول (الرسالة – الاطروحة) لذا تغيب في بعض الاحيان وحدة المفاهيم وينسى او يتم تجاوز هدف البحث الاساسي . عندئذ تصبح الرسالة الجامعية توليفا وليست تاليفا ، وذلك لغياب الرؤية الشمولية و عدم تحديد الاهداف بدقة ، وبهذا تغيب وحدة المفاهيم . ما اعتاد عليه طالب الدراسات العليا (من توليف – تجميع – تشتت) قد يستمر معه بعد نيله الدرجة الجامعية و بهذا يعده مسلمة مقبولة من الجميع . ولهذا مخاطره الجمة ، خاصة عندما ينقل هذا السياق الى طلبته .

هل الجغرافيا علم تطبيقي ؟

نعم الجغرافيا علم تطبيقي بحد ذاتها (https://www.muthar-alomar.com/?p=2647) ، تبع ذالك اعتماد الجغرافيون منهجا تطبيقيا Applied Approach (https://www.muthar-alomar.com/?p=2298) في دراساتهم الاكاديمية اسوة بالعلوم الاخرى . ولا ننس ان قراراتنا الشخصية اليومية مبنية على مدى معرفتنا بتنظيم الاشياء في فضاء المكان الذي نعيش فيه وطبيعته ، او نرغب في زيارته او الانتقال اليه . وهذه المعرفة هي جوهر متطلبات صناعة القرار decision making (بالسفر مثلا) : معلومات عن المكان بين استكشاف و استثمار للموجود فيه لتحقيق اهدافا معينة . بعبارة ادق **المعرفة الجغرافية تشكل الارضية التي تبنى عليها قرارات الانسان (الفردية والجماعية) على اختلاف انواعها واهدافها و مقاصدها : سكنية ، اقتصادية ، اجتماعية ، سياسية ، ترويحية ، تعليمية ، مهنية ، الخ .**

السؤال المهم هنا : متى يكون للبحث الجغرافي (المعلومات الجغرافية) قيمة تطبيقية ؟ عندما لا تكون الطريقة المتبعة توليفية ، وفقط عندما تكون طريقة التحليل والكتابة تركيبية تفسر العلاقات بين عناصر المشكلة – الظاهرة قيد الدرس بشكل علمي ، وتخرج بصورة (خريطة – مرتسم) قريبة جدا من الواقع وتمثله ، وبما يساعد في ايجاد العلاجات المناسبة الوقائية والعلاجية ، وبدون استحداث مشكلات جانبية – عرضية جديدة .

مع انتشار قواعد البيانات المكانية ، وتوفر تقنيات التحليل المكاني – الجغرافي لم يبق امام الجغرافي خيار الا المنحى التطبيقي ليقف على رجله ويثبت وجوده امام صناع القرار وقادة المجتمع . لقد اضحى المكان امام انظار الجميع (بغض النظر عن الموقع الوظيفي والمهنة) ومن يتعامل مع المكان بمهنية واحتراف هو

المفضل على غيره في العمل والتوظيف . انها الفرصة التي قد يندم الجغرافيون عليها لاحقا لتهاونهم فيها و عدم استثمارها ، حينها (والعياذ بالله) ، يعني ذلك نهاية الجغرافيا كعلم يدرس في المدارس والجامعات .

كيف نحدد الاختصاص في الجغرافيا ؟

لأن الجغرافيا تدرس نهر الحياة Geography of every day life لذا فهي واسعة جدا ، تشمل جميع مناحي الحياة اليومية : الطبيعية والبشري . ولانها على تماس مع العلوم المختلفة فقد استحدثت تخصصات فرعية جديدة تجمع بين الجغرافيا كعلم و التخصص العلمي الاخر الذي تشابكت معه عند دراسة مشكلة – ظاهرة مكانية معينة .

ولان الدراسة الجغرافية تعتمد المقياس Scale عند دراسة المكان ، جعلها هذا تمتد بين الاتساع الافقي مساحيا وبين العمق التحليلي الدقيق . هنا ، من نافلة القول بان عنوان البحث و المساحة التي يغطيها ، و درجة تشابكه مع التخصص العلمي الاخر هي التي تحدد طبيعته و تخصصه الدقيق . وبالامكان اعتماد مثلث مشابه لمثلث السكان (مثلث متساوي الأضلاع يستخدم لتمثيل فئات العمر في كل ضلع يستخدم المثلث للمقارنة بين عدة دول) لتحديد الاختصاص الدقيق . وفي هذه المناسبة اوجه دعوة للمعنيين باقتراح مثلث يحدد الاختصاص العلمي الدقيق ، خاصة وان البحوث الجغرافية يصعب في كثير من الاحيان تحديد طبيعتها : بشرية ام طبيعية . المثال على ذلك : الجغرافية الاقليمية ، جغرافية البيئة ، جغرافية الزراعة ، جغرافية الموارد ، مناخ المدينة ، التنمية والتخطيط ، ... وغيرها .

كتبت في مرحلة الماجستير عن السيطرة على تلوث هواء منطقة تيسساید (انكلترا) ولاني كتبت في جانب السيطرة الادارية – القانونية (التباين في تطبيق قوانين السيطرة على تلوث هواء منطقة تضم 14 وحدة ادارية) فالبحث ضمن الجغرافيا البشري (التطبيقية) ، بينما كانت زميلة لي في القسم نفسه تدرس تلوث الهواء في المنطقة نفسها بالجانب الطبيعي .

لمزيد من المعرفة عن هذا مثل هذه التساؤلات والاجابة عنها يمكن الاطلاع على المقالات الاتية :

(https://www.muthar-alomar.com/?p=2497) (https://www.muthar-alomar.com/?p=2744)
(https://www.muthar-alomar.com/?p=2603) (https://www.muthar-alomar.com/?p=886)
(https://www.muthar-alomar.com/?p=2773) (https://www.muthar-alomar.com/?p=1936)